

تفسير البحر المحيط

@ 438 أن ينادي مناد : { لَمَّا نَزَّ الْمَلَكُ الْيَوْمَ } ؟ فيجيبوا كلهم : { لِلَّهِ }
الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ } . روي أنه تعالى يقرر هذا التقرير ويسكت العالم هيبة وجزعاً ،
فيجيب نفسه بقوله : { لِلَّهِ الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ } ، فيجيب الناس ، وإنما خص
التقرير باليوم ، وإن كان الملك له تعالى في ذلك اليوم وفي غيره ، لظهور ذلك للكفرة
والجهلة ووضوحه يوم القيامة . .

وإذا تأمل من له مسكة عقل تسخير أهل السموات الأرض ، ونفوذ القضاء فيهم ، وتيقن أن لا
ملك إلا ، ومن نتائج ملكه في ذلك اليوم جزاء كل نفس بما كسبت ، وانتفاء الظلم ، وسرعة
الحساب ، إن حسابهم في وقت واحد لا يشغله حساب عن حساب . قال ابن عطية : وهذه الآية نص
في أن الثواب والعقاب معلق باكتساب العبد . انتهى ، وهو على طريقة الأشعرية . وروي أن
يوم القيامة لا ينصف حتى يقيل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار . و { يَوْمَ
الْأَرْزَاقِ } : هو يوم القيامة ، يأمر تعالى نبيه أن ينذر العالم ويحذرهم منه ومن
أهواله ، قاله مجاهد وابن زيد . والآفة صفة لمحذوف تقديره يوم الساعة الآفة ، أو
الطامة الآفة ونحو هذا . ولما اعتقب كل إنذار نوعاً من الشدة والخوف وغيرهما ، حسن
التكرار في الآفة القريبة ، كما تقدم ، وهي مشارفتهم دخول النار ، فإنه إذ ذاك تزيغ
القلوب عن مقارها من شدة الخوف . وقال أبو مسلم : يوم الآفة : يوم المنية وحضور الأجل ،
يدل عليه أنه يعدل وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق ، ويوم بروزهم ، فوجب أن يكون هذا
اليوم غيره ، وهذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات ، يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم
القيامة بالقرب ، وأيضاً فالصفات المذكورة بعد قوله : { يَوْمَ الْأَرْزَاقِ } ، لائقة
بيوم حضور المنية ، لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب لعظم خوفه ، يكاد قلبه يبلغ
حجرته من شدة الخوف ، ولا يكون له حميم ولا شفيع يرفع عنه ما به من أنواع الخوف . .
{ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ } ، قيل : يجوز أن يكون ذلك يوم القيامة حقيقة
، ويبقون أحياء مع ذلك بخلاف حالة الدنيا ، فإن من انتقل قلبه إلى حنجرته مات ، ويجوز
أن يكون ذلك كناية عن ما يبلغون إليه من شدة الجزع ، كما تقول : كادت نفسي أن تخرج ،
وانتصب كاظمين على الحال . قال الزمخشري : هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى ، إذا
المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ، ويجوز أن تكون حالاً عن القلوب ، وأن
القلوب كاظمة على غم و كرب فيها ، مع بلوغها الحناجر . وإنما جمع الكاظم جمع السلامة ،
لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ، كما قال : { رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ }

{ . وقال : فظلت أعناقهم لها خاضعين ، ويعضده قراءة من قرأ : كاظمون ، ويجوز أن يكون حالاً عن قوله : أي وانذرهم مقدرين . وقال ابن عطية : كاظمين حال ، مما أبدل منه قوله تعالى : { تَشْخَمُ فِيهِ الْإِبْصَارُ * مُهْطِعِينَ } : أراد تشخص فيه أبصارهم ، وقال الحوفي : القلوب رفع بالإبتداء ، ولدى الحناجر الخبر متعلق بمعنى الاستقرار . وقال أبو البقاء : كاظمين حال من القلوب ، لأن المراد أصحابها . انتهى . { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ } : أي محب مشفق ، ولا شفيع يطاع في موضع الصفة لشفيع ، فاحتمل أن يكون في موضع خفض على اللفظ ، وفي موضع رفع على الموضع واحتمل أن ينسحب النفي على الوصف فقط ، فيكون من شفيع ، ولكنه لا يطاع ، أي لا تقبل شفاعته ، واحتمل أن ينسحب النفي على الموصوف وصفته : أي لا شفيع فيطاع ، وهذا هو المقصود في الآية أن الشفيع عند الله إنما يكون من أوليائه تعالى ، ولا تكون الشفاعة إلا لمن ارتضاه الله وأيضاً فيكون في زيادة التفضل والثواب ولا يمكن شيء من هذا في حق الكافر . وعن الحسن : والله لا يكون لهم شفيع البتة ، { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ } ، كقوله : .
وإن سقيت كرام الناس فاسقينا .
أي الناس الكرام ، وجوزوا أن تكون خائنة مصدراً ، كالعافية والعاقبة ، أي يعلم خيانة الأعين . ولما كانت الأفعال التي يقصد بها التكتم بدنية ، فأخفاها خائنة الأعين من كسر جفن وغمز ونظر يفهم معنى